مـن الذاكــرة..

د. محمـد صـابر عـرب

يـشهد العـالم العربـي ظـاهرة ثقافيـة علـى درجـة كبيـرة مـن الأهميـة وهـي قضية الجوائز، التي أصبحت بمثابة مشروع ثقافي وحضاري كبير، فقد شـهدت الساحة الثقافية خلال العقد الأخير الإعلان عن مجموعة من الجوائز، سواء مـن جانب بعض الدول العربية أو من جانب مؤسسات أو أفراد بذاتهم.

وعلـى الـرغم مـن أن معظـم هـذه الجـوائز فـي الأدب والـشعر تحديـدًا دون بقية المجالات الأخرى كالعمارة وبـاقي المعـارف الإنـسانية كالتـاريخ والاجتمـاع، لكن الظاهرة تعد قضية حضارية على درجة كبيرة من الأهمية، وإن كنا نـأمل أن تـشمل الجـوائز العديـد مـن المجـلات وخـصوصًا التـي تتعلـق بـالهويـة الثقافيـة والحضارية.

إن ما يحدث من حراك ثقافي واجتماعي هائل في كل البلاد العربيـة لا يعد استثنـاءًا. فقد سبق وأن عنيت الـدول الأوربيـة فـي مطلـع نـهضتـها الحديثـة بكل

المعارف التي تعني بثقافة الهوية، ابتداء بما أسماه الأوربيون: "إحياء الحركة الإنسانية"، وهي ظاهرة عُني بها الإيطاليون منذ فترة مبكرة من التاريخ الحديث، وهي تشمل الدراسات الإغريقية واللاتينية، حيث كان حكام المدن الإيطالية هم أول من عُني بهذه الدراسات، اعتقادًا منهم بأنها أروع وأرقى وأجمل ما خلفه العقل البشري.

لقد قامت هذه الحركة على دعم مادي وأدبي من جانب الحكام الإيطاليين وكبار التجار الذين مولوا عمليات البحث عن المخطوطات ومصادر المعرفة الإغريقية واللاتينية، فقد اعتقد الحكام الأوربيون وهم ينتقلون من فكر العصور الوسطى إلى ثقافة العصور الحديثة بأن العناية بالهوية والمحافظة على الجذور هو الأساس في قيام النهضة بمعناها الشامل، لذا جاءت العناية بعلم التاريخ – مثلاً - الذي تطورت مناهجه لدرجة أن تهاوت العديد من الأساطير التي كان يروج لها البابوات، كما عنى الحكام بفن التصوير وشجعوا الفنانين الذين استخدموا بمهارة فائقة الأصباغ الزيتية؛ التي أضفت على الصور روعة الفن وبهاءه، كما لقي فن النحت دعمًا قويًّا، وخصوصًا من حكام المدن الإيطالية، حيث كانت التماثيل الرائعة التي خلفها الإغريق والرومان لا تزال قائمة لم تمتد إليها يد الزمان.

لقد كان الدرس الأول من كل النهضات التي شهدتها أوربا ابتداء من القرن السادس عشر هو العناية بثقافة الهوية، ولم يجدوا تعارضًا بين عنايتهم بالمعارف التجريبية في الطب وكافة المعارف التي يعول عليها في بناء المستقبل وبين العناية بالتراث.

لم يكن بعث التراث والعناية به في كل الدول الأوربية على وتيرة واحدة. فبينما أنبهر العلماء الإيطاليون اعتقادًا منهم بأن هذا التراث هو أروع ما خلفته عقول البشر، وقد غدت أعمالهم بمثابة صورة للقديم. لكن الفرنسيين – مثلاً – احتفظوا بشخصيتهم الفنية والأدبية وبأسلوبهم في التفكير والتعبير، وكانت عنايتهم بالتراث بمثابة المزج بين القديم والجديد. أما في إنجلترا فقد أخذت النهضة طابعًا دينيًّا استهدف خدمة المسيحية، لذا فقد حاولوا التوفيق بين الفن والعقيدة وبين الجمال والدين، واتجهت النهضة في إنجلترا في البداية إلى جعل الآداب والقديمة في متناول المثقفين فظهرت تراجم لأعلام الفكر القديم، مثل: "هوميروس"، و "فرجيل"، و "بلوتارك" وغيرهم. وعلى الرغم من ذلك فلم يقدم الإنجليز خلال القرن السادس عشر روائع أدبية مبتكرة إلى المعارف الإنسانية. حتى إذا جاء القرن السابع عشر بلغ الإنتاج الأدبي في إنجلترا ذروته، حيث ظهرت مؤلفات "شكسبير" ١٥٦٤-١٦١٦، و "جون ملتون" ١٦٠٨-١٦٧٢.

إن ما حدث في أوربا مع مطلع القرن السادس عشر لا يختلف كثيرًا عما يحدث في عالمنا العربي، في الوقت الحالي من العناية بثقافة الهوية، حيث تلقى المعارف الأدبية والإنسانية دعمًا هائلاً على المستويين الرسمي والشعبي، مع ملاحظة أن عددًا كبيرًا من الجماعة الثقافية في عالمنا العربي ما تزال قانعة بأن ما خلفه العرب من تراث أدبي وفكري ما يزال كله صالحًا لكي يمثل مشروعًا ثقافيًّا للمستقبل، وهو رأي يفتقد إلى الدقة ويجانبه الصواب لأسباب منهجية وعلمية، لكن العناية به وبعثه لا تعني الارتكان إليه والتغني بعبقريته، بقدر ما يمكن أن يكون بمثابة الأثاث الذي يمكن أن ننطلق معه نحو مستقبل أفضل وأكثر إبداعًا، شريطة أن نفرق بين التراث البناء والتراث العبئ.

أما إهمال هذا التراث والتحقير من شأنه والتعامل معه من قبيل المقتنيات المتحفية يجعل منا شعوبًا يؤول مصيرها إلى ما آل إليه تاريخ الهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية.

د. محمد صابر عرب